ردمد ٢٠٨١ - ١٦٠٧

آفاق الثقافة والتراث

مجلة فصلية ثقافية تراثية

تصدر عن دائرة البحث العلمي والدراسات بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

السنة الرابعة عشرة : العدد الرابع والخمسون - جمادى الآخر ١٤٢٧ هـ - يوليو (تموز) ٢٠٠٦ م

الورقة الأولى من مخطوط «رسالة في تعليم النساء»
لمحمد صبغة الله بن محمد غوث بن ناصر الدين (ت ١٢٨٠ هـ)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى اما بعد

فهذا جزء في بيان تعليم النساء الكتابة هل هو جائز

من غير كراهة او مكروه او ممنوع وقد استدل

من منع ذلك باحاديث منها ما رواه الحاكم

في المستدرك في تفسير سورة النور قال ثنا

ابو علي الحافظ ثنا محمد بن سليمان ثنا عبد الوهاب

بن الضحاك ثنا شعيب بن اسحق الدمشقي عن

هشام بن عروة عن ابيه عن عائشة رضي الله عنها

قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تنزلوهن

الغرف ولا تعلموهن الكتابة يعني النساء وعلموهن المغزل

وسورة النور قال الحاكم هذا حديث صحيح الاسناد

ولم يخرجاه يعني الشيخين وعزاه الحافظ ابن حجر

العسقلاني في تسديد القوس الى ابن مردويه ايضا

First page from the manuscript "Reesala fi Taaleem Al-Nisa"
To Mohammad Sabghatu'llah Bin Mohammad Bin Naser AL Din
(Dead in 1280 A.H).

سيكولوجية الإبداع ومقومات اللسانية والحركيّة والمعرفيّة في أدب الطفل

أ. د. نعمان بوقرة
عنابة - الجزائر

يعدّ الإبداع واحدًا من أهم القدرات الإنسانية الذهنية على التنظيم واكتشاف الجديد في مجالات الثقافة المتنوعة، من شعر وكتابة ورسم وتمثيل وموسيقا ونحت وتصوير، وقد بات من المؤكد أن أي تفكير إبداعي حر يبدأ خياليًا، فإذا اتصل بالواقع، ولامس مشكلاته انطلقت المحاكمة، فيستحيل إلى تفكير واقعي، حتى إذا وجد الحل المناسب سُمي إبداعًا، وبذلك يمكن أن نعرّف الإبداع بأنه تقديم الاستجابات المناسبة، وغير الشائعة في الأدب والفنون المتنوعة، وتؤكد الدراسات السيكولوجية أن تعزيز الإبداع كسلوك وموضوع قيمة إنما يكون بوساطة تعزيز الحريّة، وتتجلى الإبداعيّة في القدرة الخلاقة والتجديدية التي ينجزبها الأديب الروائي أو الشاعر نصّه القائم على جملة من القيم الجماليّة والنفسيّة والاجتماعية والتربويّة والحضاريّة، معتمدًا في ذلك على مهارات ذاتيّة تشخص أسلوبه الخاص، وأخرى جمعيّة تعكس علاقة الإبداع بالوعي الجمعي، وعليه ستحدد مكانة الإبداع والمبدعين في نسق الحياة الفكريّة للمجتمعات، بناء على توافق الفضاء الفكري للنصوص الإبداعيّة مع النظم الاجتماعية السائدة، وهذا التوافق هو المتحكم في سلطة الإبداع ووظيفته المركزيتين المتمثلتين في الإمتاع والإقناع، وترتكز هذه المداخلة على إبراز العلاقة القائمة بين المبدع والإبداع والإبداعيّة والمتلقي ذي الطبيعة الخاصة في ضوء سيكولوجية الإبداع وأبعاده التربوية واللسانية والاجتماعية والثقافية والحضاريّة.

١- الثقافة وسيكولوجية الإبداع:

ترتبط الثقافة بالإبداع[1]. ارتباطًا وثيقًا إلى درجة التمازج؛ فإذا كانت الثقافة المحرك الرئيس للفعل الحضاري في عالم متغيّر، فإنّ حركيّة الإبداع ودافعيته هما اللتان تحققان الاستراتيجيات الثقافيّة المرسومة لتنمية الفكر الإنساني، وترقية أدائه في جميع مناحي الحياة الاجتماعية، وفي مقدمتها الحراك التقني والمعلوماتي، وربما توقف فعل المثاقفة في حوار الأنا مع الآخر على الكفاءة الإبداعية للمبدعين، ومدى اطلاعهم على أحوال المجتمع وحاجاته، ومن ثمّ فهم يكتبون أو ينحتون أو يرسمون أو يؤلفون بناء على أفق انتظار المتلقي أو الجمهور، الذي ينتظر منهم أن يقدموا له ما يحقق

الإشباع والمتعة واللذة، ويعبّر عن تطلعاتهم المستقبلية، ولعلنا نجزم أنّ الإبداع مرآة المجتمع الطليعي، الذي يسعى لإثبات وجوده تحت الشمس، ولهذه الأهمية تُلقى على كاهل المبدعين مسؤولية التصدي لمظاهر الخلل الناجمة عن تحديات العولمة في جميع مظاهرها، وفي مقدمتها محاولات الاحتواء الفكري والثقافي والمنهجي واللساني والفني والتربوي والإعلامي[٢]، ولعلّ هذه الواجبات متأتية من مفهوم الإبداع نفسه، الذي يتطلب نوعًا من التفكير الخلاق ينفي بطبيعته الأفكار السائدة ويتجاوزها، محاولاً ابتكار حلول متعددة لمشكلة واحدة بالاعتماد على زوايا نظر متنوعة[٣] تؤسس لها منظومة الثقافة الاجتماعية.

وربما كان من العسير التأكد من تبعية الإبداع للثقافة على الرغم من الصّلة الوثيقة التي تربطهما؛ إذ كثيرًا ما يعلن تمرده عن نمطيتها السائدة وقواعدها المعياريّة، التي تفرض في ظل أوضاع اجتماعية وسياسية ما، وربما تمظهر هذا التحدي الإبداعي الرافض لأبوّة الثقافة النمطيّة وسلطتها في عزوف المبدعين عن قوالب اللغة المورّثة وأشكال الكتابة المهيمنة في العمل الإبداعي، والخروج عن مألوف الرسم والنحت والغناء والمعمار تحت شعارات متعددة منها؛ الخروج من كهوف التراث التي يصيب البقاء فيها مدة بالعمى، أو تجديد التعامل مع التراث في سبيل بعثة وربطه بالحاضر، وربما اشتط المبدعون في مدة ما، تحت تأثير ظروف ما، رافضين تقييد الإبداع بقيود مهما كانت، فتتحول فلسفة الإبداع إلى أنساق فكريّة متضادة ومتغايرة حرّة بأتم ما في كلمة الحريّة من معنى.

٢- واقع الثقافة العربية ومكان المبدعين العرب في عالم متغير:

تشهد الثقافة العربية المعاصرة حالة من التذبذب في نزاهة العلاقة بين المبدع والمؤسسة الرسميّة، والحقيقة أنّ علاقة المثقف بالسلطة ظلت محل اهتمام من طرف المفكرين؛ ذلك أنها لم تجد حلولاً لتخرج من مأزق تبادل التهم، ومسؤوليات الهزيمة وكيفيّة الحوار مع الآخر، ونتيجة تباعد المسافة بين الطرفين اختارت الثقافة ونخبها المبدعة أن توجد بشكل مستقل خارج المؤسسة الثقافية الرسمية، وربما عنّ لرموزها المشاركة في الفعل الإبداعي من خلال اقتحام منظومة المعلوماتية والتأسيس لمواقع خاصة بالمبدعين، يمكن من خلالها فتح النقاش المثمر والبنَّاء في جملة القضايا المصيرية القوميّة والدوليّة، التي تتحكم، من حيث هي موضوعات، في توجهات العمل الإبداعي نفسه، وتدخل في صميم المكون السيكولوجي للإبداع، على أنّ هناك إبداعًا من نوع آخر في هذا المستوى هو الإبداع التكنولوجي نفسه، وهذا موضوع يحتاج أيضًا إلى دراسة مستقلة، وفي هذا السياق يمكن أن نؤكد عضوية الأديب المبدع في الكيان الاجتماعي القائم على خصوصيات حضاريّة تسمح له بالمشاركة مع الآخر في رحلة الإنسانية، وهذه العضوية تترسخ بفعلي التأثر والتأثير، والأديب، من خلال ما يملك من قدرة على التغيير في الوسط الإنساني، بإمكانه تكوين فكر جديد ورؤية متميّزة عما ألفه الناس، ولأنه يملك، بصورة خاصة، سطوة الكلمة، فهو قادر على أن يكون سفير وطنه وأمته وحضارته بما يحمله من قيم ومفاهيم لدى الحضارات الأخرى، مستفيدًا من كلّ وسائل التبليغ المهمَّة والمؤثرة، التي أتاحتها الحياة المعاصرة تحت مظلّة العولمة، التي

تقترح يوميًا مفاهيم جديدة للحياة والفكر والتمدّن الإنساني، ولا يخفى على أحد أنّ المثقف العربي، والأديب بخاصة، يسجّل حضوره في البلاد الغربية بشكل ملحوظ في أوربا وأمريكا مركز هذه الفكرة، وكان من المفروض أن يحظى أدبه وفكره بانتشار مثمّن مستفيدًا - كما أسلفنا - من وسائل الاتصال المتطورة التي تفسح مجالاً إلى حدّ ما لثقافة الآخر، وربما يكون من الضروري تسجيل حضور مكثف من المنتديات الفكريّة والإبداعيّة ذات الصبغة الجماهيرية، لتحقيق الهدف التداولي للآداب والفنّ، إلا أنّ شيئًا من هذا لم يلق العناية الكافية قياسًا بما يحققه إبداع الآخر من نجاحات وانتشار في جميع الأصعدة.

وإننا لنرى القفزة النوعيّة للنظام الإعلامي الجديد، الذي يمكن الإفادة منه في إحداث التعاون مع الشعوب الأخرى ثقافيًّا وإبداعيًّا، وذلك عن طريق تقديم " صورة" حقيقيّة للإبداع الأدبي المحلي، بوصفه تعبيرًا عن خصوصيات الذّات إلى الآخر مع تبيان ما يخفى عليه من جوانب الإبداع الذاتي والخصوصيّة الجماليّة، وما إن يحقق هذا المطلب حتى تكون الآداب المحليّة والثقافة الخاصة مصطبغة بصفة الشمول والعالميّة التي تحقق لها سمة الإنسانية، والتي هي أهم وسيلة لتركيز الإبداع الأدبي على أرض الواقع ثم تدفع به إلى سماء الخلود[٤].

٣- الإبداع والمعرفة:

يذهب كثير من الدارسين إلى عد الإبداع ضربًا من الإلهام والتمرد على العقلانية من خلال تلك الشطحات المريبة، التي يقوم بها كل من المبدع والمتلقي، إلا أنّ كليهما سيحتاج إلى فكر ومعرفة، وفي ضوء هذا التصور لا يمكن تفجير الملكة الإبداعية إلاّ بجملة من المعارف المكتسبة، هي التي تحدد معرفة المبدع بعالمه، وتتحكم في أفق انتظار القارئ (المتلقي)[٥]، على أن هناك علاقة وثيقة عند علماء النفس بين الوعي والإبداع، الذي يعدّ تجليًا لحالات مكبوتة في عالم المبدع النفسي، وربما زعم بعضهم فطريّة الملكة الإبداعية التي يولد الإنسان مزودًا بها، من حيث هي مخزون ذهني من جملة مكونات الثقافة الجمعية التي تمارس سلطتها بالقوة في العملية الإبداعية.

وفي ضوء هذه العلاقة يؤكد الدارسون الصلة الوثيقة بين الفعل الإبداعي ومنظومة اللغة، فهما وجهان لحقيقة وجودية واحدة، تمثلها الفنون الأدبيّة بأشكالها المتعددة، وتتمثل علاقة اللغة بالإبداع على وجه الخصوص في قدرة النظام اللغوي على توليد عدد غير متناه من الجمل والصور والمعاني والنصوص الممكنة نحو عالم ممتد من الأفكار، وربما عُدَّ هذا التوليد اللامتناهي للأبنية والمعاني عاملاً رئيسًا في تطوير اللغة ذاتها[٦]، وربما كان مؤكدًا إسهام الإبداع في انتشال اللغة العربية من أزمتها الراهنة بمساهمة المبدع العربي في الحركة الثقافية والفنيّة بإحياء الاستعمال اللغوي العربي، واستنهاض الثقافة التراثية؛ لتغدو مكونًا مهمًّا من مكونات الثقافة العربية المعاصرة، وعلى الصعيد النظري يمكن أن نستفيد من نظرية النص المعاصرة في الإجابة عن كثير من الأسئلة اللسانية، التي تشكل هموم الدارس العربي الذي لا يزال أسير سلطة الكلمة، ومصير فكرته مهددًا بسيف الجملة، وربما تمكنّا حينًا من تجاوز الخلافات الشكليّة المتعلّقة بالفصيح والأفصح والشائع والنادر والمتداول والوظيفي، وحدود الحقيقي والمجازي، وكيفيّة تشكيل الصور وتوليدها، وإمكان الاستعانة بالفنون

الأخرى كالموسيقا في دراسة الإيقاع والوزن الشعري[٧]، بل إحداث التمازج بين الفنون والأجناس الإبداعية.

ويمكن الحديث في هذا المستوى عن ارتباط العملية التربوية والتعليميّة بالإبداع، فبغض النظر عن الجوانب الفطريّة النفسية والذهنية المتحكمة في الإبداع يمكن الحديث عن تثمين ملكة الإبداع المركبة بطبيعتها من مجموعة ملكات بتعزيزها وتنميتها، مستفيدين في ذلك من مقترحات علم التربية والتعليم، وعلم النفس الإدراكي، وتكنولوجيا المعلومات، والمنظومة الإعلامية، ولعل أهم محفزات الإبداع تنمية الذوق الفني لدى الأطفال بخاصة والمتعلمين بعامة، وأيسر سبيل إلى ذلك إحياء المسرح المدرسي[٨]، والتعريف بالأعمال الإبداعية الراقية وأصحابها، وفتح الباب لكل أشكال الإبداع العامي والنخبوي في سياق حوار الأنا مع ذاتها، وحوارها مع الآخر.

٤- الارتقاء الإبداعي وعالم الطفولة:

يرتبط الارتقاء الإبداعي لدى الطفل بتطور شخصيته، وقدراته الإدراكيّة، ومنذ الوهلة التي يكتشف فيها معالم عالمه الجديد يظهر ميلاً إلى تفضيل الصور والأشكال المحددة، التي تشبه شيئًا ماديًّا محسوسًا، ويبدو أنّ هذا التفضيل يعتمد على جانب فطري مركوز في الذهن البشري[٩]، ثم يتدرج في سلم التطور في السلوك الإبداعي، متجهًا نحو العوالم الرمزية أين تتحول العصا إلى حصان، والقصبة إلى سلاح... إلخ، وسيكون بالإمكان ترقية الإبداع في صوره المتعددة من خلال ظاهرة اللعب التي تتيح له الاحتكاك بالآخر ومحاولة استكشافه وسبر أغواره[١٠]، وقد بينت الدراسات السيكولوجية أنّ الطفل يميل إلى الألعاب الإيهامية والرمزية، التي تقوم على المحاكاة والقواعد المقننة، فتنمو لديه القدرة على التركيز والحركة المنظمة والربط الإيجابي بين الأشياء، وهذا في حدّ ذاته ملمح من ملامح المتعة الجماليّة، التي تؤسس لذوق الطفل ولملكته الإبداعية، وبنموه ونضجه يتجه نحو لعب أكثر تعقيدًا مستغلاً تلك القدرة على التلاعب بالعناصر والمفاهيم والانفتاح على الخبرة ونقص التّصلب[١١]، وفي هذا السياق يشير عبد الحليم محمود السيد إلى أهمية التمثيل التلقائي في تنمية القدرات الذاتية للطفل على تذوق الخبرات التي تمر به، والتعبير عنها بحريّة في مواقف مختلفة في اللعب والنزهة والسيرة اليومية، ولعلّ الهدف العملي المباشر من تلقائية التعبير وعفوية الأداء تربية الطفل إلى التفكير الحر والإبداع الخلاق دون قيود خارجية[١٢]، وفي سياق تأكيد العلاقة بين الإبداع واللعب بأشكاله المختلفة في عالم الطفولة نشير إلى أنه لا يمكن الفصل بين النمو اللغوي بوصفه تطورًا حركيًّا لدى الطفل، وما يصطلح عليه عند نقاد الأدب بأدب الطفل، ولعلنا نتفق منذ البداية على أنّ سبيل اكتساب الملكة اللسانيّة والأدبيّة لدى الطفل لا يتحقق إلا من خلال ما يقدّم إليه من نصوص أدبيّة، لها خصوصياتها في مستويي الشكل والمضمون، والحقيقة أنه يجب النظر إلى هذه النصوص بوصفها حلقة وصل بين الطفل المتلقي والمبدع على أنها سلسلة منتظمة من الأفعال والحركات والألعاب الإدارية. وتفيدنا اللسانيات التداولية في التأكد من نجاعة هذا الجنس الإبداعي في تحقيق ما يأتي:

أ- إثراء الحصيلة اللسانية للطفل[١٣].

ب- تنمية الخيال وتربية الحواس على الذوق الفني[١٤]، والتفضيل الجمالي.

ج- تحديد المفاهيم والربط بين القضايا المنطقيّة المعبر عنها كلاميًّا.

د- تنشيط مهارات القراءة، والتذكر، والتحليل، والتعبير، والوصف، والموازنة، وحل المشكلات، وتقديم حلول متعددة لمشكلة واحدة، مثل ما نلاحظه في قراءة الأطفال للقصص، وسماعهم أنواع المسرودات في محاولة منهم لفك لغز القصة المحير، أو تصور النهاية...إلخ.

٥- تعديل سلوك الطفل القارئ انطلاقًا من كون العلاقات اللسانية في النصوص إشاريات لأفعال سلوكية على حد زعم التداوليين وأنصار نظرية الفعل الكلامي (ACT DE PRILE) على أن تتوافق هذه السلوكيات مع حاجاته الراهنة في مرحلة عمرية معينة[١٥].

وحتى يؤدي أدب الطفل وظيفته التداولية، بوصفه مجموع أفعال كلامية، لا بد من أن يدعو المضمون النصّي إلى فكرة اللعب، ويحاول تجسيده وتمثله تحت شعار: هيا نلعب. ولعلنا نستأنس في هذا المقام بتلك الحالة الغريبة التي يعانيها الطفل المتعب الباحث عن النوم، وأمه تناجيه وتهدهده وتغنيه كلمات ربما تحمل فائدة، غير أنها مندرجة في باب اللعب باللغة والنصوص، ويضاف إلى هذا عناية الطفل اليوم بما تسمعه أذنه من أناشيد في التلفاز، وبعض النصوص الشعرية المختصرة في الإعلانات[١٦]، وفي سن متقدمة تسير النصوص المنشدة جنبًا إلى جنب مع ألعاب بعينها، يشارك في أدائها الأطفال، تمثل هذه الحركات السياقات غير اللسانية للنص الأدبي المنجز مثل:

عندي دمية تتكلم وتقول بابا ماما، والنص الشهير: قطتي سميرة واسمها نميرة. هذا وقد حرصت المناهج الدراسية على ضرورة ربط المناشط التربوية في المدرسة وبخاصة الألعاب، بالأناشيد والتمثيليات المناسبة لمدارك الطفل[١٧].

ولنا أن ندرك على الصعيد النّفسي أنّ الطفل يبدأ في التّعامل مع الكتاب بوصفه وسيلة نقل النص الأدبي وحفظه مع الشهر الثامن عشر، بأن يظهر ميلاً إلى تصفح أوراقه والعبث بصوره، فيغدو من هذه الناحية لعبة كالدّمية والدّب ذي الفرو الناعم والسّيارة، وتنمو لديه الرغبة في التسلية بالكتاب، ثم تحول هذه الرغبة إلى غرض عبور نحو ممارسة القراءة والمطالعة[١٨]. ولعلّ تعلق الطفل القارئ بقصص بعينها أو نصوص شعرية محددة راجع إلى أنها تلبي حاجاته، وتمثل مضامينها الموضوعات الأساسية المشكلة لعالم الطفل، وربما هذا ما يجعله يقبل على بعضها وينفر من أخرى، على أنّ الطفل يكون أكثر ميلاً إلى النوع القصصي الذي ساير طفولته الأولى من خلال مرويات الجدّة والأم والأخت[١٩]، وما في هذا الجنس الأدبي من خيال ومتعة تُرقي غرائزه وانفعالاته ورغباته[٢٠]. إضافة إلى كون القراءة الأدبيّة في حد ذاتها تمرينًا قواعديًّا شبيهًا بلعبة المكعبات، بناءً وهدمًا، فهو يتمرن بالقراءة مثلاً على السيطرة على الأصوات اللغويّة، وكيفيّة تركيبها، ويجد في تكرارها والتلاعب بها متعة ولذة وهو يسمع ويتحسس حركات جهازه النطقي[٢١].

إنّ أدب الطفل من خلال نصوصه المتنوعة جنسًا وموضوعًا لهو لعب من نوع خاص، ربما يجوز لنا أن نصطلح عليه باللعب الفني أو اللعب بالكلمات، وغرضه الأساس تحويل القيم المعبر عنها باللغة إلى أفعال إنجازية على حد تعبير اللسانيات التداوليّة، ولا بد حينها من أن يذوب ثلج اللعب فلا يبقى منه إلا ثمرته المتمثلة في القيمة

السلوكية[٢٢]، ولنا أن نسأل عن كيفية تحويل اللعب بالنص والكلمة إلى سلوك؟

الحقيقة أنّ ذلك يتم بالممارسة الفعليّة للعبة اللغوية مع تمثل مضمونها حركيًّا من طرف الطفل بمواقف تمثيليّة أو غنائية، لتصبح بالتكرار مثلاً فسلوكًا على حد مبدأ الأثر.

ومن أوليات الإبداع في أدب الطفل مساهمة الرسم من خلال الصور الجميلة والمعبّرة، الملونة أو القابلة للتلوين، التي تلخص مضامين النص، والتي يشترط فيها اختيارها على وفق مجموعة المبادئ، لعلّ أهمها:-

١- بساطة الصورة، وإحالتها إلى مراجع حسّية توافقًا مع إدراك الطفل لها[٢٣].

٢- استعمال الألوان والمطابقة لألوان الأشياء في العالم المادي الذي يعرفه الطفل، وانتقاء الفاتحة منها لما لها من أثر إيجابي من الناحية النفسيّة لدى الطفل المتلقي.

٣- إمكان استعمال الصورة المجسدة في أدب الطفل، مع أننا نعترف سلفًا بالتكلفة الباهضة لهذه الأعمال إنجازًا وبيعًا، إلا أنّ فائدتها التخييليّة لا تقدر بثمن؛ إذ تزرع في ذهن الطفل المتلقي القدرة على تخيل المعاني وتجسيدها، مثل تجسيد حكاية كليلة ودمنة وحكايات السندباد البحري[٢٤].

وفي ظل حياة معقدة مليئة بالتحديات المعرفيّة والتكنولوجية تعظم واجبات المبدعين ليقدموا أدبًا للطفولة، يحقق ما تطمح المجتمعات إليه، وهو طفل المستقبل، وليتسنى لهم ذلك لا بدّ من مراعاة الشروط الإبداعية الآتية:

١- حاجات المتلقين ومستوياتهم، ولعلّ أهم حاجة يحاول الطفل إشباعها اللعب، لذلك يدعى كتّاب هذا الجنس إلى ضرورة الإلمام بقضايا التربية واللسانيات ونظرية الفعل الكلامي، وما تقدمه من توجيهات في مجال الألعاب اللسانية.

٢- العناية: بموضوعات يفرضها الواقع، كالقيم الإنسانية الحضارية، والطبيعة، والخيال العلمي، مما يسهم في بناء شخصية متزنة تجمع بين الروح والعقلانية، وربما حضرتني في هذا المقام لعبة يمكن توصيفها[٢٥]. كالآتي:

لعبة - حكاية الأعرابي مع كسرى:

نوع اللعبة / تاريخيّة. جماعية

الفئة العمريّة ١٠-١٢ سنة تقريبًا.

الأدوات : شجيرة + معول.

القيمة: موقف إيجابي (قيمة الشجرة/ قيمة العمل).

سرد الحكاية: مرّ كسرى بأعرابي طاعن في السن، فوجده يحفر بمعوله، ليغرس شجرة، فسأله متعجبًا:

- لماذا تغرس هذه الشجرة وأنت طاعن في السن؟

- أجاب الأعرابي الشيخ: غرس آبائي وأجدادي فأكلنا، ونغرس نحن ليأكل الأبناء، فابتسم كسرى وأمر له بألف دينار، فقال الشيخ رافعًا رأسه إلى السماء ما أسرع عطاء هذه الشجرة! فضحك كسرى، وأمر له بأخرى، فقال الشيخ: الشجرة تثمر في العام مرتين، فضحك كسرى مرّة أخرى، وأمر له بثالثة...

ومن الألعاب التي عبر عنها شعريًّا:

لعبة طائرة الورق:

نصها قول خضر بدور

طائرتي العجيبة

سميتها وهيبة

صنعتها من ورق

وقطع من قصب

خيوطها طويلة

متينة ملونة

وهناك نصوص ألعاب كثيرة مثل: نص لعبة الكرة، لعبة الدمية، نشيد الملعب[٢٦]، ولعلنا نجد في المجموعات القصصية للكاتب السوري آصف عبد الله، عضو اتحاد الكتاب العرب، وعضو هيئة تحرير مجلة بناة الأجيال، أمثلة متعددة للنصوص القصصية المتضمنة للعب، أو الداعية إلى أنواعه، مثل: رحلة نهر، لعبة الثلج، الأطفال والأغنية، الهدية، أسئلة ريم الحلوة، عيد الشجرة، نشوان وألعابه، صندوق الجد، فراس يلهو...وغيرها من النصوص التي تتعانق فيها اللغة مع اللعب[٢٧].

٣- ضرورة مسايرة أفق النص لأفق انتظار الطفل القارئ، ولكي يتحقق ذلك لا بد من أن يترجم الكاتب طفولته، ويسفح ذاكرته الطفلية على الورق[٢٨]، وفي هذا المضمار نؤكد ارتباط وصول أدب الطفل إلى قرائه الحقيقيين من خلال الوعي العميق بالأبعاد الثقافية والحضارية والقدرات النفسية والجماليّة لدى الطفل؛ إذ إنه ليس كل ما يكتب باسم أدب الطفل هو كذلك، وعلى الكاتب أن يراعي الصفات الآتية فيما يكتب لهذه الفئة:

- الصفة العمرية.
- الصفة الموضوعية.
- الصفة الطباعية.
- الصفة الأسلوبية[٢٩].

٤- ضرورة الاستفادة من التطور المعلوماتي، الذي يوفر وسائل للترفيه واللعب والتثقيف والتعليم ممثلاً في النص والكتاب الالكتروني، الذي أصبح أكثر رواجًا هذه الأيام وبخاصة في فضاءات شبكة المعلومات، التي اكتسحت المجال الحيوي لعالم الطفل، وأضحت بديلاً مغريًا عن الكتاب، وبخاصة إذا نظرنا إلى الفارق في الثمن.

كما أشار تومسون إلى أهمية التعليم والتعلم لتنمية القدرات الإبداعية لدى الأطفال، وتشجيع الإلماع الحسّي[٣٠] عندهم.

وربما كان هذا سببًا لاستثارة الأعمال الإبداعية، بسيطة كانت أم معقدة؛ لاهتمام المتلقي وذوقه، فيكون إزاءها قابلاً أو رافضًا، مفضلاً أو تاركًا، والطفل بوصفه نموذجًا لهذا المتلقي يتعامل ذوقيًّا مع أنشطة إبداعيّة متنوعة، يقبل بعضها ويرفض الآخر تبعًا لعوامل متعددة منها:

- الفئة العمرية.
- متغير الجنس.
- القدرة الذهنيّة.

الطبقة الاجتماعية (البيئة).

الألفة أو الغرابة.

وتذهب الدراسات المعاصرة إلى أنّ الأطفال يكتسبون القدرة على تذوق النصوص، والتفاعل

معها بدءًا من السنة التاسعة إلى الثالثة عشرة تقريبًا، وهي مرحلة يؤكد اللسانيون اكتمال ملكة تركيب الكلام وتوليد الجمل، وإتقان القواعد الضرورية للأداء، ويتجلى هذا التفاعل الإيجابي مع النصوص بانتقال الطفل من مرحلة القراءة الحرفية[٣١]، التي تقف عند حدود المعنى المركزي إلى البحث في الدلالات الجافة والمغزى والجماليات الأسلوبية والإيقاعية والعلامات الإشارية، التي تعبر عنها الشخصيات - مثلاً - في القصص الموجهة إلى الطفل.

وعلى الصعيد الإبداعي يمكن الحديث عن تطور مهم بالنسبة إلى الطفل بتمثله لأساليب الكتابة والقص وحفظ الشعر، وربما نظمه، بل قدرته على تمييز الجيد من الرّديء، بوعي نقدي تشكلت أولى معالمه من معرفته الضمنيّة بقواعد لغته، وتقوم القراءة بوصفها نشاطًا هادفًا بمهمّة تزويد الطفل بثلة من المعلومات والخبرات توافق نموه، وتقابل ميزات الوزن في النمو[٣٢]، وفي هذا الصدد يكون الهدف من القراءة بالنسبة إلى الأطفال تأمين الارتباط المستمر بين النمو الجسمي والعقلي واللغوي، ولا سيما التفكير والتأمل والإدراك والإبداع والتفضيل الجمالي، وكلما أشبعت رغبة الطفل في الاطلاع ازدادت خبرته، وصفا ذهنه، واكتسب سعة المعرفة بالعالم، وانبعثت في نفسه ميول جديدة موجهة[٣٣].

٥- التربية الإبداعية:

يمكن الحديث في سياق العناية بتكوين الشخصية المبدعة والمفكرة عن الطرائق التربوية التي اكتشفها علماء التربية والمعنيون بسيكلوجيا الإبداع، وقد حصرت - عنهم - فيما يأتي:

١- طريقة ذكر الخواطر:

مكتشفها كروفرد، الذي يؤكد حرية المتعلم المطلقة في التعبير عما يريد، واختيار الخصائص المتعلقة بالموضوعات دونما تدخل من المعلم.

٢- طريقة العلاقة القسرية:

تستخدم هذه الطريقة في فن الكاريكاتير، وقوامها افتعال علاقة بين شيئين بينهما علاقة بالأصالة.

٣- طريقة التحليل المورفولوجي:

يتم في ضوئها تحليل المشكلة إلى أبعادها الأساسية بغية الحصول على إجابات لتساؤلات يومية خاصة بعالم الطفل.

٤- طريقة ربط العناصر المختلفة:

لعل هذه الطريقة من أهم ما جادت به عقول التربويين، وقد تبناها جوردون، وهي قائمة على مبدأ التداعي الحرّ، أين يكون التواتر النفسي في ذروته باحثًا عن إجابات لأسئلة مختلفة عن موضوع لا يعلم حدوده وأبعاده إلا الموجه أو المربي، تلافيًا للإجابات السطحيّة البدهية، فيضحي المألوف غريبًا والغريب مألوفًا[٣٤].

إنّ هذه الطرائق وغيرها مما ابتكره النفسانيون والمربون تتجه نحو بناء الشخصية المبدعة أو الطفل المبدع، التي تتحقق فيها المواصفات العقليّة والنفسيّة الآتية:

١- الموهبة.

٢- الذاكرة الشاملة.

٣- قوة الملاحظة.

٤- القدرة على الخلق الفكري.

٥- المعرفة المستمرة والتأهيل الذاتي.

٦- النضج المبكر.

٧- الكم الإنتاجي الغزير.

٨- الحريّة الفرديّة[٣٥]..إلخ. إضافة إلى عوامل سياسية وبيئيّة واجتماعية، وربما جغرافية يكون لها من الأثر الواضح في إعداد المبدعين وتكوينهم في المجالات والمراحل العمرية المتنوعة[٣٦]، وهذا يقود حتمًا إلى الحديث عن أهمية المناخ الإبداعي الذي يعدّه ألكسندر روشكا الوسيط المباشر والتأثيرات الاجتماعية والنفسيّة والثقافية والتربوية التي يمكن لها أن تسهل أو تحبط التفكير والأعمال الإبداعية(٣٧)، ويمكن عد هذا الوضع الإبداعي العمليّة الاجتماعية الأساسيّة التي بإمكانها إعداد الطفل ليكون قادرًا على أداء واجباته والتعبير عن رغباته وحاجاته تمامًا مثل ما يقوم به الراشد في دورة الحياة اليومية[٣٨]، على أن هذه التنشئة موكولة إلى الأسرة أولاً، ثم المدرسة، فهما المؤسستان الاجتماعيتان اللتان تضطلعان بالوظيفة التربوية بشكل دائم ومستمر، ولهذه الأهمية أكد ميرت بوروما أهمية تميز الفلسفة التربوية بإفساحها مجالاً أرحب على صعيد التفكير للطفل؛ لتتسنى له المبادرة والتعبير التجددي والمشاركة في إيجاد الحلول دون أن يشكل ذلك خرقًا لسلطة الوالدين، وفي هذا السياق تبين الدراسات السيكولوجية أنّ الأطفال الذين يتمتعون بالعيش في كنف أسرة تقدر معاني الحرية والديمقراطية، وتعطي أهمية للحوار ومناقشة الآخر يتميزون بالصفات الآتية:

١- القدرة على التحصيل المعرفي.

٢- القدرة على إنجاز الواجبات في الظروف الصعبة.

٣- الاعتماد على النفس في حل المشكلات.

٤- السلوك الحميمي، والبعد عن السلوك العدواني.

٥- التلقائية والأصالة والابتكار[٣٩].

أما ما ارتبط بالمدرسة التي زاحمت الأسرة في العملية التربوية[٤٠]، فيمكن القول إنّ أسلوب التنشئة المعتمد فيها يوميًا يقف حجر عثرة دون بناء الشخصية المبدعة؛ لاعتماده على أسلوب العقاب وكبح الحرية بدعوى المحافظة على النظام المدرسي، وقد أكّد محمد السرغيني أهمية الحرية في العملية الإبداعيّة فهي بمنزلة الروح للجسد، وهي ترتبط به ارتباط لازم بملزومه في حالتي السلب والإيجاب، ويكتسب هذا الارتباط مقولته من الزمان والمكان والواقع والإمكان والمادة والشكل والمضمون والكم والكيف والحركة[٤١].

خلاصة:

يرتبط الإبداع بالثقافة والمعرفة الإنسانية، وتشكل اللغة الوسيلة الأساسية في إنجازه وتلقيه ضمن علاقة ثلاثية، أركانها المبدع والنص والمتلقي، الذي اختار أن يكون طفلاً، له حاجاته وميوله واستعداداته الذهنية والحركيّة وعالمه الخاص به، هذا العالم الذي يمارس سلطته على فكر المبدع وخياله، ويجعله أسير ما يبتغيه الطفل النهم إلى المعرفة، الباحث عن ذاته ومستقبله من خلال النصوص، لذا توجب الاهتمام بالعمليّة الإبداعيّة وتشجيع التفكير الإبداعي لدى الطفل،

للوصول إلى تنمية مقومات شخصيته في إطار تنشئة اجتماعية هادفة، وربما كان من المهم أن يهتم بتدريب الطفل على التفكير الحر، وإيجاد الحلول الممكنة والمناسبة وتعزيزها ذاتيًّا، في ضوء توفير جو خلاّق خال من السلطة القامعة للفكر والسلوك، ثم العمل على توجيهه إلى الإفادة من التكنولوجيا الحديثة، التي أصبحت أداة لا غنى عنها لترقية التفضيل الجمالي، وإثراء المعرفة بمختلف أنماطها، ناهيك عن ضرورة العناية بسلوك اللعب في حياة الطفل وترشيده لما له من فوائد جمّة في مجال التربية الابتكارية والتخييلية مما نعده الركيزة الأولى للإبداع. ■

●●●

الحواشي

١- معلوم أنّ الإبداع يشير إلى التفكير ذي النتائج الجديدة والمبتكرة الخالية من الروتينية والتقليد، ويقرن الدارسون بين الظاهرة الإبداعية وحل المشكلات، يقول جيلفورد: حيث يكون هناك إبداع فثمة حل جديد لمشكلة، انظر: التنشئة الاجتماعية للتفكير اللا إبداعي، مجلة المعرفة /ع٤٥٦/س٢٠٠١/١٥٠.

٢- الثقافة العربية وعصر المعلومات، رؤية لمستقبل الخطاب الثقافي العربي، عالم المعرفة، ع٢٧٦: ٥٠٤.

٣- الإبداع والشخصية: دراسة سيكولوجية : ٥٣.

٤- بيان العرب وثقافة العولمة: من يكسب الرهان؟ مجلة الرافد، ع٧٠/س ٢٠٠٣: ١٢٧.

٥- الفن في العصر الحديث :٦٠.

٦- كان لأنصار النحو التوليدي التحويلي دور بارز، وفي مقدمتهم شومسكي، في تأكيد إبداعية اللغة وخاصيتها الخلاقة، ثم تطورت هذه المقولة عند علماء النص في أحضان الدراسات اللسانية النصيّة.

٧- الثقافة العربية وعصر المعلومات:٥٣٢.

٨- المسرح وتحولات العقل العربي:١١٧.

٩- التفضيل الجمالي: ٢١٩.

١٠- سيكولوجيا اللعب: ١٢٢.

١١- التفضيل الجمالي: ٢٢٢-٢٢٤.

١٢- تنمية القدرات الابتكارية لدى الطلاب - الأساليب والمعوقات ، مجلة بناة الأجيال، ع٤٦، ٢٠٠٣: ٤٥.

١٣- أدب الأطفال، أهدافه وسماته: ١٢٤، وانظر علم نفس الطفل: ١٥٢.

١٤- قصة الطفل في الجزائر، دراسة في المضامين والخصائص: ٨٧.

١٥- عن علاقة السلوك بالتعليم عند الطفل : الأطفال مرآة المجتمع:١٠٠.

١٦- من قضايا أدب الأطفال: ٥٧.

١٧- الطرق الخاصة بتدريس العربية وأدب الأطفال للصفين الرابع والخامس بدور المعلمين والمعلمات :١٢٠. نقلاً عن الأسس النظرية لتقويم كتب القراءة والأناشيد : ٣٥.

١٨- الطفل والكتاب :٤٥.

١٩- ثقافة الطفل، هموم وتطلعات، مجلة بناة الأجيال: ع٤٦/ س٢٠٠٣/ ٧١.

٢٠- أدب الأطفال:١٠٩.

٢١- اللغة والفكر: ٤٤.

٢٢- موسوعة علم النفس: ١٥٦.

٢٣-.rhetorique del image:4

٢٤ ملاحظات حول دور الرسم في كتب الأطفال:مجلة الحياة الثقافية: ع٤/ ١١٩.وانظر: رسوم الأطفال بين النص القصصي والواقع الاجتماعي، مجلة الحياة الثقافية ع ٤٠/١٩٨٦/١٢١.

٢٥- دور الألعاب في تحويل القيم إلى سلوك ، مجلة بناة الأجيال ع ٤٤ -٤٥/٢٠٠٢/٧٦.

٢٦- التجربة الإبداعية عند خضر بدور، مجلة العلوم الإنسانية، ملتقى أدب الطفل: ١٨٣.

٢٧- انظر أعمال آصف عبد الله الصادرة عن اتحاد الكتاب العرب ومطبوعات مكتبة الأسد، مثل رحلة نهر، لو كنت حصانًا (٢٠٠٠) والبستان الجميل (١٩٨٦).

٢٨- ثقافة الطفل، هموم وتطلعات:٣٧.

٢٩- كتب الأطفال، الأهمية والاختيار، مجلة بناة الأجيال :ع٤٤ -٤٥: ٦٤.

٣٠- المصدر نفسه: ٤٤.

٣١: أكد الباحث الروسي تشوكوفسكي أهمية اللغة في المرحلة العمرية الأولى للطفل في تشكيل عالمه وتحديد علاقته به، واللغة أداته الأساسية في التعبير عن خياله الحيوي، وحسّه الفكاهي والتعبير عن انفعالاته وعواطفه ورغبته في السيطرة على الآخرين.

٣٢- كتب الأطفال، الأهمية والاختيار، مجلة بناة الأجيال ع٤٤- ٤٥ :٦٢.

٣٣- محاضرات عن طرق تعليم القراءة :٧٩-٨٠، وانظر سيكولوجية القراءة: ١٠، وما بعدها وبالنسبة إلى الشروط السيكولوجية المحددة لنشاط القراءة الوظيفيّة وآلياتها يمكن العودة إلى محاضرات علم النفس اللغوي: ٢٤١ وما بعدها.

٣٤- التربية الحديثة ونمو الفكر المبدع، مجلة بناة الأجيال، ع ٤٦/س٢٠٠٣/ :٩٦.

٣٥ - يعاني كثير من المجتمعات من سلطة كابحة للإبداع بشتى أنواعه وتبدأ هذه السلطة من الأسرة، وتنتهي بأهم المؤسسات الاجتماعية، ويكون لهذا السلوك نتائج سلبية جدًا في تكوين شخصية الطفل، فيكتسب قيمًا سلبية كالخجل والاتكال على الآخرين والخوف والشعور بالعجز، وعدم الثقة بالنفس، وقلة الاحترام من الآخر، وهذه كلها مثبطات للفكر المبدع، انظر مقدمات لدراسة المجتمع العربي:٤١.

٣٦- الإبداع وطبيعة العصر، مجلة المعرفة ع٣٥ س١٩٩٧م: ١٠٨.

٣٧- الإبداع العام والخاص ، عالم المعرفة، ع ١٤٤س ١٩٨٩: ٨٣.

٣٨- معجم علم الاجتماعي :١٨٥.

٣٩- الأسرة كعامل تربوي ودورها في تربية الأطفال: ١١.

٤٠- المدرسة والمجتمع العصري : ١٥٥- ١٥٦.

٤١- مقولات الحرية وحركية الإبداع، المؤتمر العلمي السادس، الحرية والإبداع : واقع وطموحات: ٤٧، وانظر أيضًا مقال الصادق الساحلي من جامعة تونس ، التنشئة الاجتماعية بين الأمس والغد، المصدر نفسه: ٤١١، وما بعدها.

المصادر والمراجع

- **الابداع العام والخاص**، لألكسندر روشكا، تر. غسان عبد الحي، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٩م.
- **الإبداع والشخصية**، دراسة سيكولوجية، دار المعارف، مصر، ١٩٧١م.
- **أدب الأطفال**، لأحمد حسن حنورة، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٩٨٩م.
- **أدب الأطفال**، أهدافه وسماته، لمحمد حسن بريغش، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٢م.
- **الأسرة كعامل تربوي**، لعبد الرحيم صالح عبد الله، بغداد، ١٩٧٩م.
- **الأسس النظرية لتقويم كتب القراءة والأناشيد**، لرجاء محمود منصور، ط١، دار الوفاء، مصر، ١٩٩٥م.
- **الأطفال مرآة المجتمع**، لمحمد عماد الدين إسماعيل، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٦م.
- **بيان العرب وثقافة العولمة**، من يكسب الرهان، لنعمان بوقرة، مجلة الرافد، عدد ٧٠/ س ٢٠٠٣، الشارقة.
- **التنشئة الاجتماعية للتفكير اللاإبداعي**، لأحمد إبراهيم يوسف، مجلة المعرفة، العدد ٤٥٦سنة ٢٠٠١م.
- **تنمية القدرات الابتكارية لدى الطلاب**، لجهينة علي حسن، مجلة بناة الأجيال، ع٤٦، ٢٠٠٣م.
- **الثقافة العربية وعصر المعلومات**، رؤية لمستقبل الخطاب الثقافي العربي، لنبيل علي، عالم المعرفة، الكويت.
- **سيكولوجية القراءة**، للدكتور محمد صلاح الدين مجاور، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٦م.
- **الطفل والكتاب**، لعبد الرزاق جعفر، ط١ ، دار الجيل، لبنان، ١٩٩٢م.
- **علم نفس الطفل**، للوبلنيسكايا، تر. بدر الدين عامود ورفيقه، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، سوريا.
- **الفن في العصر الحديث**، لجان ماري شيفر، تر. فاطمة الجيوشي، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٦م.
- **قصة الطفل في الجزائر**، دراسة في المضامين والخصائص، لعميش عبد القادر، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- **اللغة والفكر**، لبول شوشار، تر. صلاح أبو الوليد، المنشورات العربية.
- **المدرسة والمجتمع العصري**، لجوسلين، تر. محمد قدري لطفي ورفاقه، عالم الكتب، القاهرة.
- **المسرح وتحولات العقل العربي**، لمهدي بندق، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٨م.
- **مقدمات لدراسة المجتمع العربي**، لهشام شرابي، ط٣، دار المتحدة، بيروت، ١٩٨٤م.
- **موسوعة علم النفس**، لأسعد رزق، ط٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٩م.